

التسامح وضرورة العيش المشترك

Tolerance and the need for coexistence

سعد بوترة¹

¹ جامعة يحي فارس _ المدينة

Sadboutara76@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/05/01 تاريخ القبول: 2024/01/23 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص:

عاشت البشرية منذ فجر وجودها على وقع الصراعات، التي تغذيها طبيعة الوجود الانساني الذي تأسس على مفارقة التباين والوحدة، التباين الذي يتجلى في تعدد الاعراق والاجناس والمذاهب والديانات ... الخ، والوحدة التي تظهر في الكرامة الانسانية والعيش بسلام وتحقيق الطموحات ... الخ، هذا ما دعا الى ضرورة التفكير في هذه المفارقة والتأسيس لفلسفة في التسامح تنطلق من المشترك الانساني وتعمل على تقويته وترسيخه، وتحاول من جهة آخر تهذيب الاختلاف وتأطيره بما يخدم هدف العيش المشترك، وفي هذه الوقة البحثية نعكف على محاولة كشف مكانة التسامح نظريا وعمليا في خلق مناخ ملائم لقبول فكرة الاختلاف، شرط أن لا يكون قناعا يخفي حقائق مناقض له كشعار ومفهوم وممارسة. من خلال تجارب فلسفية في فكرة التسامح.

كلمات مفتاحية: التسامح، العيش المشترك، السلم، الاختلاف، الصراع.

Abstract:

Humanity has lived since the dawn of its existence on the impact of conflicts, fueled by the nature of human existence, which is based on the paradox of difference and unity, the contrast that is manifested in the multiplicity of races, races, sects, religions ... etc., and the unity that appears in human

dignity, living in peace and achieving ambitions ... etc., This is what called for the necessity of thinking about this paradox and establishing a philosophy of tolerance that stems from the human commonality and works to strengthen and consolidate it. It is appropriate to accept the idea of difference, provided that it is not a mask that hides contradictory facts as a slogan, concept and practice. Through philosophical experiments in the idea of tolerance.

Keywords: Tolerance, coexistence, peace, difference, conflict.

***المؤلف المرسل: سعد بوترة**

مقدمة:

عاشت البشرية منذ فجر تاريخها على وقع الصراعات والحروب الدموية التي أدت بحياة الكثير من البشر، غدتها الانتماءات العرقية والدينية، ومجموع ألوان الاختلاف والتمايز الاثني بين البشر، وقد كانت الحربين العالميتين التين حدثتا في القرن العشرين الأكثر دموية عن ما حدث قبلها من حروب، نظرا لنتائجها غير المسبوقة من الضحايا والتدمير المادي والمعنوي نتيجة تطور الأسلحة المستعملة، ما استدعى الحديث عن فكرة السلم والتعايش بين الشعوب والأمم من خلال استحضار موضوع التسامح لإرساء السلام والتعايش بين الأفراد أولا ثم بين المجتمعات والأمم المختلفة.

فقد يكون التسامح كفكر أولا وكممارسة دور في تحقيق أهداف تطمح إليها البشرية بعد أن ضاقت ألوانا من الويلات، من قبيل التقليل من النزعات، والصراعات ذات الصبغة الدينية والاثنية والسياسية محليا أولا ثم عالميا، من خلال الانطلاق من الفهم المعرفي للتسامح في مستواه العلمي والديني والاجتماعي والنفسي، وقد أضحى الاهتمام بالتسامح مطلبا إنسانيا لا يقاوم، ويمثل ضرورة لا محيص عنها في العلم الحديث، في ظل طغيان نزاعات الميل إلى التعصب والتطرف التي تنمو

التسامح وضرورة العيش المشترك

وتتعاظم نتيجة غياب ثقافة التسامح وحلول ثقافة اللاتسامح محلها، والتي أفضت إلى عالم مليء بالصراعات والنزعات الدموية، التي لم يبدوا أفقا لنهايتها، وانطلاقا من هذا الواقع الذي ينذر بمستقبل أكثر قتامة من الماضي الدموي الذي عاشته الإنسانية. نتيجة تطور أدوات الصراع. يحق التساؤل: هل يمكن للتسامح كتجربة فلسفية التأسيس لقبول فكرة الاختلاف و من ثمة التعايش السلمي بين الافراد والمجتمعات في عالمنا المعاصر؟

تحديد المفاهيم:

التسامح لغة: كلمة التسامح في مدونات اللغة العربية غائبة تقريبا غير أن جذرها موجود وهو السماح والمسامحة وهو في اللغة مشتق من الجذر "سمح" واستخدم بعدة معاني في العربية؛ كالجود فيقال: "سَمَحَ وَأَسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء." (ابن منظور، 1414 هـ، 489) وبمعنى الانقياد، فيقال: "سَمَحَتِ الناقة في سيرها إذا انقادت واسرعت." (الازهري، 2001، ص48) وتستعمل بمعنى المساهلة، فيقال: "تسامح في الشيء، تساهل فيه والمسامحة المساهلة." (جميل صليبا، 1982، ص 271) وقد ورد عن الشيخ الطاهر بن عاشور في معرض تناوله لمصطلح التسامح قوله: "التسامح في اللغة: مصدر سماحة إذا أبد له السماحة القوية، لأن صيغة التفاعل هنا ليس فيها جانبان، فيتعين أن يكون المراد بها المبالغة في الفعل، مثل: عافاك الله. وأصل السماحة السهولة في المخالطة والمعاشرة وهي لين في الطبع في مضان تكثر في أمثالها الشدة." (الطاهر بن عاشور، ب، ت، ص 226)

أم في الغرب فمصطلح التسامح الذي هو الترجمة العربية للكلمة الانجليزية toleration فهي كلمة "مشتقة في الاصل من الجذر اللاتيني tolerare الذي يعني التحمل." (سمير الخليل وآخرون، 1992، ص 6) ومن معانيه: "أنه سلوك شخص يتحمل دون اعتراض أي هجوم على حقوقه في الوقت الذي يمكنه فيه تجنب هذه الإساءة. ويعني استعداد المرء لأن يترك للأخر حرية التعبير عن رأيه ولو مخالفا ولو

خطأ". (مجموعة من المؤلفين، 1993، ص178) ما يعني أن المعنى الاساسي المتضمن هو المعناة والتحمل. أي "التعايش مع شيء لا يحب في الحقيقة، أو يمكن أن يعتبر لا أخلاقيا". (سمير الخليل وآخرون، 1992، ص7) وهذا ما يجعل التسامح بالمعنى العربي يختلف على ما هو الحال عليه في المعنى الانجليزي أو الغربي، في كون التسامح في العربي فضيلة مطلقة بينما عند الغرب فهي محدودة. وهما بذلك يعينان شيآن مختلفين كل الاختلاف.

التسامح اصطلاحاً: مصطلح التسامح يعد من بين المصطلحات لا كثر انتشار وشيوعاً، لكثرة تداوله في الاوساط الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية. غير أن المفارقة تكمن في ضبابية مدلول المصطلح وهلامية استخدامه، وغياب الوضوح والدقة في الدلالة، ولعلا مرد ذلك إلى حمولة المصطلح الثقافية والايديولوجية، والتبعات الفكرية المرافق له اضافة الى المعطى التاريخي الذي ولد فيه المصطلح ومختلف المدلولات التي رافقت هذه الولادة.

ظهر مصطلح التسامح عند الغرب كردة فعل على الحروب الدينية في أوروبا، وفي اطار الإصلاح الديني فهو كمفهوم "وليد حركة الإصلاح الديني الأوروبي، وقد نشأ ليعبر عن تغير في الذهنية ناتجة عن علاقة جديدة، هي علاقة الاعتراف المتبادل بين القوي التي استمر تتصارع طوال القرن السادس عشر. (مراد وهبة، 1987، ص103) ما جعله في البداية مفهوماً دينياً يعد "فلتير" أول من آمن به وروج له من خلال كتابه "رسالة في التسامح" حيث اعتبر التسامح قيمة انسانية مطلقة لا حدود لها و "جون لوك" الذي فكر فيه هو ايضا في اطار الإصلاح الديني وكتب رسالة في التسامح عبر فيها عن روح المسيحية المتسامحة، حيث نجده يقول فيها: "انني أنظر إلى التسامح على أنه العلامة المميزة للكنيسة الحققة." (جون لوك، 1997، ص19)، غير التسامح بالمعنى الواسع العام نجده قد ورد عند "إيمانويل كانط" الذي اهتم بفكرة تحقيق السلم الدولي. والجدير بالذكر هو عدم انكار ما للحقل الديني من

التسامح وضرورة العيش المشترك

اسهام بأفكاره في بناء المفهوم وتكوينه ووصوله الى ما هو عليه، غير أن ما لحقه من تطور في الدلالة يعود أساسا إلى توسعه ليشمل حقولا أخرى كالسياسة والفلسفة. كما يمكن اعتبار مفهوم التسامح في استعماله المعاصر منتوج غربي وافد إلينا. مثله مثل الكثير من المصطلحات التي رافقت الحضارة المعاصرة وتم احتضانه في ثقافتنا وتبنياتها.

التسامح اصطلاحاً "موقفا إيجابيا متفهما من العقائد والأفكار، يسمح بتعايش الرؤى والاتجاهات المختلفة بعيد عن الاحتراب والاقصاء، على أساس شرعية الآخر المختلف دنيا وسياسيا وحرية التعبير عن آرائه." (ماجد الغرباوي، 2008، ص 20)

وقد حدد اعلان مبادئ التسامح الذي حرر تحت مسؤولية اليونسكو في دورته لسنة 1995 أن التسامح: "ليس فقط مجرد التزام أخلاقي وانما هو أيضا ضرورة سياسية وقانونية." (عبد الكريم الخطيبي، 1999، ص 9) اما مجمع اللغة العربية فيعرف التسامح بأنه: "سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول. ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة على الآخرين." (مجمع اللغة العربية، 2011، ص 269) ويختصر الجابري التسامح في عبارة: "التسامح هو احترام المواقف المخالفة." (محمد عابد الجابري، 1997، ص 20)

ما نخلص إليه هو أن التسامح عند الغرب فكرة فلسفية وقيمة اخلاقية واجتماعية وثقافية، أما الرابط بين التعريفات السالفة الذكر فهو مشترك يجمعها المآل والمقصد من التسامح وهو: قبول فكرة الاختلاف من خلال احترام حرية المعتقد وحرية الرأي. ومن ثمار ترسخ قيم ثقافة التسامح في الفرد والمجتمع احلال السلم والعيش المشترك ونبذ التفرقة على اساس الدين أو العرق أو اللون أو أي شيء آخر يمكن أن يغذي فكرة التعصب.

التسامح؛ قيمته وتجلياته وأثاره:

رهانات العصر وما حملته من تطورات في مجال الاتصال والتواصل والثورة الرقمية، التي قربت المسافات وسهلت سبل التعارف والتقارب بين البشر، جعلت العالم قرية صغيرة تلتقي فيها مختلف الاجناس والديانات والاعراق والافكار المتباينة، وهذا ما طرح فكرة التعايش وفرض حضورها بإلحاح لضبط الاختلاف ولتحقيق السلم وتفادي الحروب والصراعات، الناتجة عن تضارب المصاح بين الافراد والجماعات، ولعل الرهان الابرز لتحقيق ذلك هو التسامح الذي يغدو مطلباً ضرورياً لعلاج امراض العنف والتعصب. يقول فولتير: "ان النزاع هو المرض الكبير للبشر، والتسامح هو علاجها الوحيد." (فولتير، 2017، ص 310)

التسامح مبدأ وقيمة إنسانية عظيمة تحمل في طياتها جملة من المعاني النبيلة والسامية، فهي زينة الفضائل الاخلاقية تترفع على عرش القيم الأخرى فهي تنقي القلب وتنظف الروح وترق لها النفس وتقرب الأشخاص من بعضهم البعض وتجعلهم مترابطين روحياً ومعنوياً وتعزز الشعور بالرحمة والمودة والتعاطف بين الناس.

التسامح الديني: يعد التسامح الديني من اوضح مظاهر التسامح ويظهر في التعايش بين الأديان وحرية ممارسة الشعائر الدينية مع التخلي عن التعصب الديني المفضي إلى العنف ضد المخالف عقدياً أو مذهبياً، وقد تسبب غياب خلق التسامح في مجاد الدين، في حدوث القدر الاكبر من الازدياد في تاريخ البشرية، وهذا ما جعل مفهوم التسامح عند ظهوره في الغرب مفهوماً دينياً وحسب، كونه ارتبط في "نشأته كرد فعل على حروب أوروبا الدينية... فكانت فكرة أن أونها في زمن بدا فيه عدد كبير من الشعوب بحاجة إليها فحدثت وتم التمسك بها." (سمير الخليل وآخرون، 1992، ص 17) وقد دعت جميع الأديان إلى تمثل خلق التسامح وإن كان بالفاظ وعبارات مختلفة كون الدين جاء لأجل تنظيم حياة البشر استناداً إلى قواعد الفضيلة ومنها التسامح الذي يتقدم الفضائل.

التسامح وضرورة العيش المشترك

التسامح الفكري والثقافي: يعد التسامح في مجال الفكر مدخلا لتطور المجتمعات كونه الحل النهائي لمعضلة التعصب للرأي والفكرة الناتجة أساسا عن الدوجماتية التي يعيشها المتعصب وتمنعه من قبول الفكر والرأي المخالف، وقد تحدث بوبر عن مبادئ ثلاثة تقود إلى التسامح وتلخص الموقف العقلي النقدي الذي يؤسس الاخلاق وهي:

- 1 - قد أكون أنا على خطأ وقد تكون أنت على صواب.
- 2 - دعنا نتفاهم حول الامور بشكل عقلاني
- 3 - قد يكون من شأننا أن ندنو من الحقيقة حتى ولو لم نصل إلى اتفاق. (سمير الخليل وآخرون، 1992، ص 91)

ويقم التسامح في مجال الفكر والثقافة على حقيقة انسانية جوهرية هي قابلية البشر للوقوع في الخطأ، وميلهم إلى ازدراء افكار الغير وثقافتهم من منطلق التفوق، وقبول التسامح يتفق وحقيقة أقرها سقراط وهي الافتقار الى المعرفة والاقرار بذلك، وهذا ما يجعل التسامح نتيجة ملازمة لكيونتنا البشرية. اننا جميعا من نتاج الضعف: كلنا هشون وميالون للخطأ. لذا دعونا نسامح بعضنا البعض ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل. وذلك هو المبدأ الاول لقانون الطبيعة. المبدأ الاول لحقوق الانسان كافة. (سمير الخليل وآخرون، 1992، ص 76)

التسامح السياسي: بدخول الانسان الى الحياة السياسية وتركه الحياة الطبيعية خلفه بما تحمله من صراح وتناحر نتيجة تضارب المصالح، كان عليه أن يجد سبيل للتعايش بسلام مع تبادل المنافع والمصالح، وحفظ الحرية كحق طبيعي، وهذا ما جعل البعض يدافع عن التسامح السياسي الذي يقتضي الاعتراف بالآخر المخالف وحقه في التعبير عن رأيه وهو دفاع في الحقيقة عن الديمقراطية التي تكفل حقوق الجميع بما توفره من آليات التوفيق بين الاغلبية المسيطرة والاقلية المحترمة. وقواعد التسامح السياسي لا تعني أي نقص في الالتزام بالمثل، ولا تعني التنازل عنها، بل تعني

الالتزام بالامتناع عن قمع الآراء التي لا نوافق عليها، بيد أننا غير مطالبين بأن نحجب أو نؤيد أو نشجع هذه الآراء وهذا يعني أن كل ما يتطلب منا التسامح هو أن نقبل بالتعبير الحر عن الآراء والمواقف التي لا نوافق عليها.

مطلب إعادة بناء مفهوم التسامح:

رأى الكثير من المهتمين بمفهوم التسامح أنه بمعناه الذي أسست له فلسفة الانوار والفلسفة الليبرالية لا يتسع لكل المعاني الضرورية التي ينبغي ان يحملها كي يكون قادرا كمفهوم على الايفاء بما يأمل منه تحقيقه، في مواجهة قضايا خطيرة في مقدمتها التعصب المفضي الى اللاتسامح والعنف. فبوبر يرى أن التسامح " لا يمكن أن يوجد الا على أساس متبادل" ما يعني ان للتسامح حدود هي تجوب الطرفين، أما جن رولز فاقترح ما أسمه يقانون الشعوب أو فكرة العقل العام لتحقيق التسامح بين الشعوب الليبرالية والشعوب غير الليبرالية، ومن جهته رأى طه عبد الرحمن أن ضبط الاختلاف يتطلب ثلاثة مبادئ أساسية هي: مبدأ التسامح ومبدأ الاعتراف ومبدأ التصويب. واعتبر أن مبدأ التسامح يقتضي ترك الازدراء لأفكار الغير مع وجود القدرة على هذا الازدراء، ومادامت الحدود غير بينة في مجال الفكر بين ما ينبغي التسامح فيه وما لا يجب التسامح فيه، هذا قد يفضي الى شبهات اقلها الشعور بالتفوق من المتسامح وهذا ما يتنافى مع كونه قيمة منهضة، ويتطلب في اعتقاده دعم مبدأ التسامح بخلق الحياء. (طه عبد الرحمن، 2005، ص147)

كما نجد محمد عابد الجابري يعتقد أن تاريخ الفلسفة يدل على أن التسامح كان دائما مقوما أساسيا من مقومات التفلسف، والبحث عن الحقيقة، غير أنه من زاوية أخرى يبدو التسامح تعبيرا عن علاقة قوة كونه يفترض فيه أن يكون علاقة بين طرفين مسامح ومسامح معه، والذي يضبط هذه العلاقة هو ميزان القوى لا غير، ما جعل الجابري يرى أنه لا معنى لدفع شعار التسامح إذا لم يكن مقرونا بالعدل الذي ينطلق من توفير حق الغير (محمد عابد الجابري، 1997، ص 32).

خاتمة:

التسامح يبدو مطلباً ضرورياً حيث توجد جماعات مختلفة المعتقد والثقافة ويصل اختلافها حد التعارض والتناقض مع وجوب العيش معاً لأن البديل عنه هو التنافر والصراع المفضيان إلى كل ما هو شر ووبال على الجميع، غير أنه مطلب صعب المنال كونه مرافق دوماً للموافقة والقبول لشيء غير محتمل أي كرها، وهذا الذي جعل البعض يشكك في مدى فاعلية التسامح في تحقيق السلم والعيش المشترك، لدخول مختلف الشبه عليه كمخالجة المتسامح الشعور بالتفوق على المتسامح معه، ما يجعله نوعاً من المنة على المتسامح معه، وللخروج من هذه الشبهة يجب قرن التسامح بالحياء الذي اقترحه طه عبد الرحمن حيث يقول: "لكي تخرج [الامة المتسامحة] عن اعتقادها المتوقع، يجب أن يكون الشعور بضرورة أن يكون فكرها دائم العطاء والوعي، أي دائم الحياء." (صه عبد الرحمن، 2005، ص156) وقد اقترحا محمد عابد الجابري من جهته اقران التسامح بالعدل كي يخرج من دائرة الايديولوجيا حيث يقول: " لكي يغدو التسامح قيمة يدخل العدل في مضمونها، وتزيد عليه، يجب اعطاء الاولوية لتوفير حق الغير: إن العدل يقتضي المساواة. أما اعطاء الاولوية للغير داخل المساواة، فذلك هو التسامح، ان التسامح حين يقرن بالعدل بهذا المعنى يبتعد أن يكون معناه التساهل مع الغير أو الترخيص له بكذا أو كذا، الشيء الذي يضع التسامح في وضعية أعلى من المسامح له، بل التسامح هنا يعني الارتفاع بهذه العلاقة إلى مستوى الآثار. (محمد عابد الجابري، 1997، ص 31)

في النهاية يمكن القول أن التسامح اذا حقق مفهومه وتخلص من كل الشوائب والنقائص، وابتعد عن مختلف اشكال التوظيف وفي مقدمتها التوظيف الايديولوجي، سيكون لا محالة على المستوى الديني والاجتماعي والمعرفي الثقافي قيمة هامة

وفضيلة اساسية للقضاء على سيادة التعصب ونفي الآخر، ومدخلا لتحقيق التعايش تحت مظلة السلام الذي يحققه التسامح.

قائمة المراجع:

ابن منظور (1414هـ) لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، ج 2.
الازهري، (2001) تهذيب اللغة، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، ج 2.
جميل صليبا، (1982) المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ج2.
جون لوك (1997) رسالة في التسامح، ترجمة منى ابوسنه، المجلس الاعلى للثقافة، مصر.

سمير الخليل وآخرون، (1992) التسامح بين الشرق والغرب، ترجمة ابراهيم العريس، دار الساقى، بيروت لبنان.

الطاهر بن عاشور (ب، ت)، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشركة التونسية للتوزيع - تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، ط2.

طه عبد الرحمن، (2005) الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

عبد الكريم الخطيبي، (1999) السياسة والتسامح، ترجمة عز الدين الكتاني الايدريسي، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

فولتير، (2017) قاموس فولتير الفلسفي، مؤسسة هندواي سي أي سي، ترجمة يوسف نبيل، المملكة المتحدة.

ماجد الغرباوي، (2008) التسامح ومنابع اللاتسامح، الحضارية للطبعة وللنشر، بغداد، العراق.

مجموعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية، (1983) المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة

محمد عابد الجابري، (1997) قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. ط 1.

مراد وهبة، (1987) أبحاث المؤتمر الاقليمي الاول للمجموعة الاوروبية العربية للبحوث الاجتماعية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

التسامح وضرورة العيش المشترك